

٦. قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم (*)

في

ضوء الدراسة والبحث

لم تكن اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم لغة ضعيفة في مفرداتها، وتراكيبها، وألفاظها ومعانيها، بل كانت لغة تحمل في طياتها عناصر الحياة، وقوة التعبير، وجمال الكلمة، ورشاقة الألفاظ، وغزارة المعاني.

أجل، لم تكن اللغة العربية بلغت سن الشيخوخة، يدب في أوصالها الوهن، ويعتربها الضعف لتلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكنها كانت في طور الشباب، قوية فتية، تسحرك بألفاظها، وتدهشك بمعانيها، وتأخذ بمجامع قلبك، حينما تصغى إليها في مجالات التعبير المختلفة: شعرا وخطابة، ومحاورة، وأمثالا.

وهذه اللغة التي بلغت القمة في التعبير عن المعاني المختلفة، المحسوسة أو المعقولة، في ألفاظ جزلة، وعبارات متأخية، وكلمات عذبة، هذه اللغة نزل بها القرآن الكريم، ليتحدى من يملكون ناصية هذه اللغة في مجال فصاحة الكلمة، وبلاغة المعنى، وجمال الأسلوب، «فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص إلا من تجاهل منهم وتعامي، واستكبر وتعاشى، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد يقن أنه عليه غير قادر، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستورا، ومن عى لسانه ما كان مصونا، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: والطاحات طحنا، والعاجنات عجننا، فالخابزات خبزنا، والثاردات ثردنا، واللائمات لقمنا، ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة» (١).

واستطاعت اللغة العربية أن تستقى من هذه المعجزة الخالدة ما أعانها على التطور

(*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي - نوفمبر سنة ١٩٧١.

(١) انظر: مقدمة تفسير الطبري: ٦/١.

العجيب في صيغها وتراكيبها ومفرداتها، وأساليبها، فبلغت بالقرآن الكريم درجة من الرقى ليس بعدها درجة.

وقد لفتت هذه المكانة التي وصلت إليها العربية أنظار كثير من المستشرقين المتعصبين منهم وغير المتعصبين، فهذا (آرنست رينان) يقول في كتابه: (تاريخ اللغات السامية) ما نصه: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القويّة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حُلل من الكمال إلى درجة أنّها لم تتغيّر أى تغيير أى تغيير يذكر حتى أنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة»^(١)، وأعجبنى ما كتبه (جون فرن) في قصة خيالية أشاد فيها بلغة القرآن، ذلك لأنه بنى قصته الخيالية «على سباح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا، أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدأ لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه»^(٢).

ولما كانت لغة القرآن الكريم لغة التحدى والإعجاز على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة، فإنى لا أستطيع أن أقبل ما يدعيه بعض العلماء والرواة من أن القرآن التكريم اشتمل على كلمات أعجمية، ليست عربية الصنع، وقبل أن أعرض رأيي في هذه القضية أرى أن أبسط آراء العلماء حولها، ليكون القارئ على بينة من أمرها. ثم أختتم بحتى برأى الذى أراه في هذا الموضوع:

١- أما الكلمات الأجنبية التي نازح حولها الجدل، واحتدم النقاش، فهذا بعض منها:

١- ما ورد بلسان الحبشة: قال الطبرى: حدثنا عنبة عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن أبى موسى: «يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»^(٣) قال: الكفلان - ضعفان من الأجر بلسان الحبشة.

(١) نقل هذا النص من كتاب: «دراسات في العربية وتاريخها» للشيخ محمد الحضر حزين ص ١٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٤.

(٣) الحديد: ٢٨.

وعن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ (١) قال: بلسان الحبيشة: إذا قام الرجل من الليل، قالوا: نشأ.

= وعن أبي إسحاق عن أبي ميسرة: ﴿يَا جِبَالَ أُوَيْبِي مَعَهُ﴾ (٢) سبى بلسان الحبيشة.

وحدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٣) قال: هو بالعربية: الأسد، وبالفارسية: شار، وبالحبيشية قسورة (٤).

وقال السيوطى فى الإتقان = الأواه = الموقن بلسان الحبيشة. الدرر: المضى: بلسان الحبيشة (الجبت): اسم الشيطان بلسان الحبيشة (٥). وقال الزركشى فى البرهان فى علوم القرآن: المشكاة: الكوة بلسان الحبيشة (٦).

٢- ما ورد بلسان الفرس:

الأباريق: جمع إبريق: التنور - الدينار: السرادق - الاستبرق: الزنجبيل.

٣- ما ورد باللسان الرومانى:

الرقيم: اللوح، القسطاس: العدل، طففا: قصدا.

٤- ما ورد باللسان العبرى:

كيل بعير = البعير: الحمار. الأليم - المؤلم. درست = قرأت. هدنا = تبنا. راعنا = كلمة

سب.

الرحمن: ذهب المبرد وثعلب إلى أنه عبراني، وأصله الخاء المعجمة.

(١) المزمّل: ٦.

(٢) سبأ: ١٠.

(٣) المدثر: ٥١.

(٤) الطبرى ج ١ ص ٨.

(٥) الإتقان ج ١ ص ١٣٨.

(٦) البرهان فى علوم القرآن ص ٢٨٧، ٢٨٨.

٥- ما ورد باللسان القبطي:

الملة الآخرة = الأولى: والقبط يسمون: الآخرة:الأولى، والأولى: الآخرة. بطائنها =
ظواهرها: وراءهم ملك: أمامهم. اليمّ = البحر.

٦- السريانية: الطور: جبل.

٧- اليونانية: سريا: النهر الصغير.

٨- الزنجية: حصب جهنم: حطب جهنم: وقولوا حطة: صوابا.

٩- النبطية: «رہوا: سهلا. سيدها: زوجها بلسان النبط، قال أبو عمرو: لا أعرفها في لغة
العرب.

١٠- كلمات مختلف في نسبتها:

السجل: قيل حبشى، وفي المحتسب لابن جني: فارسي معرب.

السندس: قيل: رقيق الديباج بالفارسية، وقيل الرقيق من الستر بالهندية.

وقد أفرد السيوطي هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف، وسماها (المهذب فيما وقع في
القرآن من المعرب).

١١- كلمات أعجمية غير منسوبة^(١).

وقد نظم تاج الدين السبكي منها سبعة وعشرين لفظاً في أبيات جاء فيها:

السلسبيل، وطه، كورت، بيع	روم، وطوبى، وسجيل، وكافور
والزنجبيل، ومشكاة سرادق مع	استبرق، صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسّا	قُ دینار والقسطاس مشهور
له مقاليد فردوس يعدد كذا	فيما حكى ابن دريد فيه تنور

(١) انظر في هذا الموضوع: الطبرى ج ١ ص ٦، الإنقان: ج ٢ ص ١١٩ طبع دار التراث، البرهان: ص ٢٨٧ و
٢٨٨.

وقد ذيل الحافظ بن حجر على هذه الأبيات، وذيل السيوطي عليها بالباقي وهي بضع وستون، فتمت أكثر من مائة لفظة (١).

ب- آراء العلماء حول هذه الكلمات؛

١. رأى من يقول: إنها أعجمية؛

يستند هؤلاء في هذا الرأي إلى ما روى سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن على رجل (أعجميا، وعربيا) فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (٢) فأنزل الله بعد هذه الآية في القرآن بكل لسان (٣).

وعن أبي ميسرة قال: في القرآن من كل لسان (٤).

ومن العلماء الذين يرون هذا الرأي الإمام (الجويني)، ففي رأيه أنه لا يستنكر وقوع المعرب في القرآن الكريم، بل يرى أن له فائدة في مجال البلاغة والبيان، قد لا يشعر بها كثير من الناس، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عليه من دقة البيان، وسر الإعجاز. استمع إليه يقول مدافعا عن كلمة (استبرق) ما نصه: «فإن قيل: إن استبرق ليس بعربي، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم، وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك. وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغبهم فيها بالوعد الجميل، ويخوفهم بالعذاب الويل، لا يكون حثه على وجه الحكمة.. إلى أن يقول:

ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمور: الأماكن الطيبة، ثم المآكل، والمشارب، ثم الملابس الرقيقة، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والنقل، وربما يكون

(١) الاتقان جـ ص ١١٩، مفتاح السعادة ص ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤.

(٢) - فصلت: ٤٤.

(٣) - الطبري ج ١ ص ٨.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن، ولا يتركه في الوعد، لئلا يقصر في الحث والدعاء.

ثم إن هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى، لأنه أوجز وأظهر في الفائدة، وذلك (استبرق)، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ، ويأتى بلفظ آخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه، أما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة. ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغة العربية للدياج الثمين اسم، وربما عربوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم، وندرة تلفظهم به.

وأما إن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة، لأنه ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ - تطويل، فعلم بهذا أن لفظ (استبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه (١).

٢. رأي من يقول: إنها عربية؛

على رأس هؤلاء الإمام الشافعي رضى الله عنه، فقد أنكركل الإنكار أن تكون هذه الكلمات أعجمية الصنع، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين. ولا يمكن أن يصدق العقل، أو يطمئن القلب إلى مثل هذه الروايات، التي تدعى أعجمية بعض الكلمات، فالقرآن الكريم في نظر الإمام الشافعي من ألفه إلى يائه عربي فصيح، لم يستعر كلمة من غير لغة العرب، لأنه ليس في حاجة إليها، بل أحاط بهذه اللغة احاطة كاملة، لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتوقف على معونة في كلمة أو كلمات، تقدم إليه من مختلف اللغات.

وكان الشافعي صريحا كل الصراحة في هذا الاتجاه، مؤمنا كل الإيمان بهذا الرأي. لدرجة أنه قدم النصيحة خالصة، حارة ملتهبة لهؤلاء الذين يدعون ما يدعون ليركوا هذا الانحراف في الرأي، حتى يسلم لكتاب الله جلاله وسلطانه.

وأنى أترك المجال للشافعي، ليعرض علينا رأيه، معزّزاً بالحجة، مدعماً بالبرهان، قال الشافعي في الرسالة:

(١) الاتقان ج١ ص ١٣٦، ١٣٧.

«فقال منهم قائل: إن في القرآن عربيا وأعجميا» فرد الإمام على هذا الادعاء بقوله: «والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شئ إلا بلسان العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي» إلى أن يقول:

فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محصن بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (١) فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعض بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه، وما أطاقوا منه، ويحتمل يكون بعث بالستتهم، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ ويرد الشافعي على هذا الاعتراض بقوله.

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهم بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان التابع على التابع.

وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه».

بهذا المنطق القوي رد الشافعي هذا الاعتراض، ولكنه لم يكتف بذلك فوثق هذا الرد بكتاب الله تعالى في وضوح بيده الباطل، وصراحة تكشف البهتان، فيقول: وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه: قال الله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين (١٩٦) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين﴾ (٢)، وقال: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ (٣) وقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ (٤) وقال: ﴿حم والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾ (٥) وقال: ﴿قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ (٦).

(٢) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥.

(١) إبراهيم: ٤.

(٤) الشوري: ٧.

(٣) الرعد: ٣٧.

(٦) الزمر: ٢٨.

(٥) الزخرف: ١ - ٣.

قال الشافعي: فأقام حجته أنه كتاب عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آية من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١).

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (٢)، ويختتم الشافعي دفاعه عن كتاب الله تبارك وتعالى بهذه النصيحة الغالية فيقول: «فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه، وكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بياضاح حق، وكان القيام بالحق، ونصيحة المسلمين من طاعة الله، وطاعة الله جامعة للخير» (٣).

بهذا الرد المقنع، وبهذه النصيحة الخالصة دافع الإمام الشافعي عن قضية عروبة هذه الكلمات، دفاعاً حاراً، لزم فيه المنطق القوي، والحجة البالغة والدليل القرآني القاطع.

وإني حرصت كل الحرص على تسجيل عبارات الشافعي بنصها في هذا المجال، لأنها تحمل من حرارة الدفاع عن كتاب الله أكثر مما تحمل عباراتي.

وفي هذا الخط الذي رسمه الشافعي اتجه الإمام الطبري في تفسيره هذا الاتجاه وكأنه بآرائه التي بسطها في هذه القضية يضع الدلائل الواضحة على صحة رأى الشافعي، ذلك لأنه يرى أن هذه الكلمات الأعجمية، انفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربية، فليس من المنطق أن نقول: إنها غير عربية بل هي عربية أعجمية: يقول الطبري: «ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بمعنيين معاً؟ ويقول أيضاً، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة. وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه، ويميل تعداده.

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) فصلت: ٤٤.

(٣) الرسالة: ٥٠.

على أن الطبري لم ينكر هذه الآثار المروية عن ابن عباس، أو عن سعيد بن جبير، بل يقرر صحتها من وجه آخر، غير ما يدعيه هؤلاء الذين يقررون أنها أعجمية فيقول: «فلو أن قائلها قال فيما ذكرناه من الأشياء التي عددنا، وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره، ذلك كله عربى لا فارسى، أو قال: بعضه عربى، وبعضه فارسى، أو قال: كان مخرج أصله عند العرب، فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله عند الفرس، فوقع إلى العرب فأعربته - كان مستجهداً إلى أن يقول: بل الصواب في ذلك عندنا أن يسمى عربياً أعجمياً، أو حبشياً عربياً إذا كانت الأمتان له مستعملتين إلى أن يقول: «وذلك هو معنى ما روينا عنه القول في الأحرف التي مضت في صدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم، لأن من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربياً»^(١).

وتتفق وجهة نظر أبي عبيدة معمر بن المثنى مع الإمام الشافعي والطبري، فيقول: «نزل القرآن بلسان عربى مبین، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول، ومن زعم أن (طه) بالنبطية فقد أكبر، وقد يوافق اللفظ اللفظ، ويقاربه، ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية، والآخر بالفارسية أو غيرها»^(٢).

ومع أن أبا عبيدة دافع عن عروية هذه الكلمات إلا أن الإمام اللغوي الزبيدي صاحب تاج العروس ينسب إلى أبي عبيدة رأياً آخر يوفق بين المانعين والمجوزين يقول: «قال أبو عبيدة: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألستها، وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، ثم لما نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية، فهو صادق، ومن قال: أعجمية فهو صادق»^(٣).

(١) الطبري ج١ ص ٩.

(٢) مجاز القرآن ج١ ص ١٨.

(٣) تاج العروس ص ٩.

ج: رأى ومناقشة:

فى رأبى أننا إذا أردنا أن نصل إلى حل حاسم لهذا الإشكال، فإنه لا بد من الرجوع إلى التاريخ العربى لنستفتيه فى هذه القضية التى كثر فيها الجدل، واحتدم النزاع بين العلماء.

أننا إذا رجعنا إلى التاريخ ليدلنا على كلمة (عرب) فماذا نجد؟ نجد اختلافا كبيرا بين رجال اللغة من العرب فى مدلول هذه الكلمة، فقد قال ابن منظور فى كتابه الكبير: لسان العرب ما نصه: «واختلف الناس فى العرب لم سموا عربا؟ فقال بعضهم أول ما أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرّب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة. وقيل: إن أولاد إسماعيل نشثوا بعربة، وهى من تهامة، فنسبوا إلى بلادهم.

ثم قال صاحب اللسان، وكل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمينهم، ومعدهم (١).

والمستشرقون وعلى رأسهم المستشرق (ولفنسون) فى كتابه (تاريخ اللغات السامية): يرى أن كلمة (عرب) كانت مستعملة فى اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء) أى لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية (٢).

ويرى هذا المستشرق أن ما يقال فى المعاجم اللغوية العربية من أن هناك فرقا بين كلمتى عربى وأعرابى، وتخصيص الأولى بسكان المدن، والثانية بسكان البادية فلم يحدث الا فى عصور قريبة من ظهور الإسلام أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقا، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب، أما سكان المدن والأمصار، فكانوا ينسبون إلى قبائلهم، ويعرفون بمناطقهم (٣).

(١) لسان العرب: مادة: عرب.

(٢) تاريخ اللغات السامية: ص ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

ويرى مرة أخرى أن كلمة عبرى تؤدي المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها، أى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها، وإبلها من مكان إلى آخر.

وقد استدل على هذه النظرية بأن كلمة عبرى مشتقة من الثلاثى عبر الذى معناه بالعبرية والعربية: ذهب، ورحل وقطع مرحلة من الطريق، أى أن كلمتى عبرى وعربى مُشتقتان من ثلاثى واحد هو عبر، فحدث قلب مكانى فى هذه الكلمة الثلاثية فصارت عرباً^(١).

وفى رأى أن المعاجم اللغوية تحدثت عن هذه التفرقة فعلا، ولكنها مع ذلك نصت أيضا على أن كل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمينهم، ومعدهم كما قدمت.

وأما القرن الذى ظهرت فيه هذه الكلمة، فقد حددته النقوش والآثار التى اكتشفت فى عصرنا الحديث، فقد أشار المستشرق لوبون فى كتابه (حصارة العرب) إلى آثار الأشوريين التى تحدثت عن العرب فقال: «وذكر العرب قبل الميلاد بتسعمائة سنة فى بلاغ (سلما نصر الثاني) وأدت ملكتان عربيتان فروض الطاعة (تيفلا نفاصر) قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة، واستعان (بانيال) بجيوش عربية عندما رفع راية العصيان»^(٢).

ويقسم المؤرخون العرب إلى قسمين: بائدة، وباقية. ومن العرب البائدة. عاد، ومسكنهم الأحقاف فى اليمن، وثمود، ومسكنهم الحجر فى جهة معان، ومدائن صالح، وطسم، ومسكنهم اليمامة، وعمليق، ومسكنهم عمان، والحجاز وتهامة، وبعض نجد، وتيماء وبترا، وفلسطين، وهم القوم الجبارون الذين تهيئهم قوم موسى إذ قالوا: «إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها».

ومنهم جالوت الذى قاتل داود، فقتله داود عليه السلام، وجرهم ومسكنهم باليمن، ومن بقاياهم قوم هاجروا إلى مكة، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام ثم بادوا، ووبار.. ومسكنهم اليمن فى وبار المسماة باسمهم، وقد هلكوا.

والعرب الباقية: أولاد قحطان، وأولاد عدنان^(٣).

(٢) حصارة العرب ص ٩١.

(١) المرجع نفسه ص ١٦٥.

(٣) تاريخ الأدب لحنى ناصف ٨.

وليس ثمة شك في أن هذه القبائل العربية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم بينة السمات، هذه اللغة هي العربية، والعربية من أقدم اللغات السامية كما نصّت على ذلك كتب العبريين، بل إن العرب أنفسهم أقدم من العبريين في تاريخ وجودهم على هذه الأرض، وما زالت كتبهم تقص علينا الشيء الكثير من أخبار العمالقة، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب.

على أن هذه القبائل العربية لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها، بل اختلطت اختلاطاً شديداً بغيرها من أجناس الأمم، اختلطوا بالمصريين حينما انحلت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا، واستولوا على مصر في حملة معروفة في التاريخ المصري القديم بحملة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ ق.م وعرفوا بالرعاة، ودام سلطانهم قروناً كثيرة (١).

وتنص الكتابات المسمارية على أن قبائل ثمود التي كانت تقيم في بلاد الحجاز اشتبكت في معارك طاحنة مع سرجون ملك آشور الذي مزقهم كل ممزق، وأجلى البطون الثمودية الثائرة في بلاد العرب إلى مدينة غزة بفلسطين (٢).

وقدماء اللحيانيين الذين كانوا يقيمون في الحجاز عرفوا بالقوة والعظمة حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر (٣).

لا شك أن هذا الاختلاط الذي حدث بين العرب وغيرهم في تاريخهم القديم أدى إلى التفاعل اللغوي، مما جعل اللغة تتطور في قوة حتى اكتمل بناؤها واتسعت مفرداتها بفعل هذا الاحتكاك.

ولا أدل على ذلك من اعتراف المستشرقين أنفسهم بهذه الظاهرة فقد قال (ليفنسون): «إن اللغة العربية تشتمل على عناصر تدل على أنها بصورتها الحالية، ليست أصلية قديمة، بل إنها صيغ مرت عليها تقلبات كثيرة وتغييرات في حين أن هذه الكلمات توجد في العبرية أو

(١) حضارة العرب ص ٩٠.

(٢) حضارة العرب ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٤.

الآرامية دون أن يظهر عليها شيء من آثار هذا التبديل، فمثلا كلمة (قول) تؤدى بالعبرية معنى = صوت. أما فى العربية فلا تطلق إلا على جملة أصوات مجتمعة، وكذلك (أمر) تدل على الكلام العادى، وتدلل فى العربية على الطلب بشدة^(١).

وقد استطاعت العربية بما تحمل من عناصر الحياة والتطور أن تؤثر - كما تقول روايات المستشرقين أنفسهم - (فى النبط الآراميين) فكان ذلك من أهم الأسباب التى حملتهم على نسيان لغتهم الآرامية، وإيجادهم لأنفسهم مزيجا من لغة الآراميين والعرب، ولم يكن هذا المزيج مفهوما عند العرب فأطلقوا عليه الرطانة النبطية^(٢).

من هذا العرض السابق أستطيع إن أقول: أن هذه اللغة العربية لغة قديمة نكوت بمرور الزمن، وعبر التاريخ، وسارت فى طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت إلى ما قبل الإسلام إلى الذروة من التقدم والرقي، على حين تجمدت اللغات السامية الأخرى، لتصبح أثرا بعد عين.

ومن المنطق أن أقول: أن لغة احتكت بغيرها من اللغات الأخرى، فأثرت فيها، ووصلت إلى هذه الدرجة من التطور لابد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخرى، تمدها بما تحتاج إليه من مفرداتها الواسعة، وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات فى بناء لغات هذه الأمم، ولا يصح فى مجال التفكير السليم أن نقول: إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات، إذا قلنا ذلك، فهذا تحكم لا تسنده إلا هذه الأخبار التى ذكرها الرواة، وهى أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٣).

ومن العجب حقا أن ندعى أن مفردات اللغة العربية التى عاشت هذا العمر الطويل وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ، وعبر الأجيال. تمثلها هذه المعاجم اللغوية، أو هذه الروايات التى جمعها لنا رواة العرب حينما بدءوا بدوتون اللغة.

(١) تاريخ اللغات السامية ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٣.

(٣) يوسف: ٢.

أجل لقد أحس بهذه الحقيقة راوية من كبار الرواة، وعمد من عمداء اللغة، إنه أبو عمرو ابن العلاء الذى يقول: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب الا أقله ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير» (١).

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجمية هذه الكلمات من ناحية أخرى، فهذه الكلمات كمايقول السيوطي: أكثر من مائة لفظة، وهو عدد قليل جدا بالنسبة إلى كلمات القرآن الكريم التى تبلغ فى رواية الفضيل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة (٢).

فما السر إذا فى أن يمد القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم. هل اللغة العربية فقيرة إلى هذا الحد، فتطلب المعونة بهذه الكلمات، كيف ذلك؟ وهى اللغة التى لا تستطيع أن تجاريها لغة أخرى فى مجال الاتساع، كيف ذلك؟ وهى اللغة التى تحفظ للمعنى الواحد المتين من الألفاظ.

استمع إلى السيوطى يقول فى المزمهر: «إن العجم لا تعرف للأسد أسماء غير اسم واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم.

وقال حدثنى أحمد بن محمد بن بندار قال: سمعت أبا عبدالله بن خالويه الهمداني يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين.

ويروى ابن فارس قصة الأصمعى والرشيد، وخلاصتها. «أن الرشيد سأل الأصمعى عن شعر لابن حزام المعكلي، ففسره، قال: يا أصمعى، إن الغريب عندك لغير غريب، قال: يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك، وقد حفظت للحجر سبعين اسما؟» (٣).

ويجدد بى أن أعزز رأى هذا برأيين لرجلين من أعلام الفكر فى العالم العربى فى وقتنا الحاضر، وهما الموحومان الدكتور عبدالوهاب عزام، والشيخ أحمد شاکر.

(١) الاقتراح: ٢٧.

(٢) البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٩.

(٣) المزمهر ج ١ ص ٣٢٥.

أما الدكتور عزام فيرى: أن اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا في عصور متطاولة قبل الإسلام، فدخل في الفارسية مثلا ألفاظ سامية، فرب لفظ فارسي يظن أصلا للفظ عربي هو في الحقيقة لفظ سامي تسرب إلى الفارسية في العصور القديمة، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا في العصور الإسلامية^(١).

وأما المرحوم الشيخ أحمد شاکر، فيرى: أن العرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجودا، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها، بله الفارسية، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدينتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب، ولا يعرف مصدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله^(٢).

وبعد، فلعل بهذا العرض لهذه القضية استطعت أن أضع النقاط على الحروف دفاعا عن كتاب الله العربي، هذا من ناحية، ولعل من ناحية أخرى أسد الباب أمام هولاء اللغويين المحدثين الذين يدعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب، حينما أخذ عن الفارسية والحبشية وغيرهما.

ونحن نلجأ إلى التعريب، لأننا لم نعش في أعماق اللغة، لنستخرج الكلمة الدالة، واللفظة المعبرة، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية، ولإيثار مد اللغة العربية بكلمات جديدة سيرا على مبدأ التطور اللغوي من ناحية أخرى إن صح لنا أن نعرب الوف الكلمات الوافدة في عصر تقاربت فيه اللغات، وتمازجت الأفكار، فإنه لا يصح مطلقا أن نتخذ من القرآن ذريعة نعتمد عليها في شرعية هذا الغزو الأجنبي، فإنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(١) مقدمة العرب للحوالي: ص ٤.

(٢) من مقدمة الشيخ شاکر ص ١٣.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى - طبعة ثالثة - مطبعة الحلبي . وطبعة دار التراث
- ٢- الاقتراح: جلال الدين السيوطى - طبع الهند.
- ٣- البرهان فى علوم القرآن للزركشى - تحقيق محمد أبى الفضل - مطبعة عيسى الحلبي .
- ٤- تاج العروس للزبيدى - المطبعة الوهبيّة .
- ٥ - تاريخ الأدب حفى ناصف - مطبعة جامعة القاهرة - طبعة ثانية .
- ٦- تاريخ اللغات السامية الدكتور إسرائيل ولفنسون - طبعة أولى ١٣٤٨ هـ القاهرة .
- ٧- تفسير الطبرى - المطبعة الميمنية .
- ٨ - حضارة العرب - الدكتور نموستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر طبع دار إحياء الكتب العربية .
- ٩- دراسات فى العربية: الشيخ محمد الخضر حسين .
- ١٠- الرسالة للإمام الشافعى تحقيق الشيخ أحمد شاكِر - طبعة أولى سنة ١٩٤٠ .
- ١١- لسان العرب لابن منظور - عدة طبعات .
- ١٢- مجاز القرآن لأبى عبيدة - تحقيق محمد فؤاد سزكين - طبع مؤسسة الرسالة .
- ١٣- المزهَر - جلال الدين السيوطى - مطبعة السعادة .
- ١٤- المعرّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم لأبى منصور الجواليقى .
- ١٥- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - دائرة المعارف النظامية - الهند .
